المحاضرة الرابعة

من محاضرات مدخل الى علم التفسير

مدرس المادة

م.م محمد قحطان عدنان

اداب التفسير

وبالنسبة لموضوع آداب التفسير. فهو يعرض المجموعة من الملكات النفسية التي يجب أن تتحقق في التصدي للتفسير، فالأدب يطلق للدلالة .على كل ملكة تعصم من قامت به عما يشينه، وإذا أضيف اللفظ إلى علم التفسير صار مصطلح ،آداب التفسير، يعني مجموعة من الملكات النفسية التي تعصم المفسر من الميل أو الإخلاد لهوى النفس، كما أن استيفاءه لهذه الملكات يزكي بصيرته، ويلهمه الفهم السديد، ويوقفه على لطائف كتاب الله.

ولاستيعاب المراد بآداب التفسير، أقوال بأنها ليست مجرد قضايا منهجية أو مسائل فكرية فحسب، بل هي أقرب لأن تكون خصالا خلقية تتحلى بها ذات المفسر.

وللإيضاح فإن قواعد التفسير، التي هي ضوابط منهجية صرف لا يمكن لها منفردة أن تعطينا معرفة سديدة لمراد الله تعالى في القرآن، بل لابد أن تنضاف إليها مختلف الآداب المقررة بالنسبة لمن يتصدى للتفسير.

وإذا أضفنا لما سبق أن تفسير القرآن الكريم، هو عبادة من أعظم العبادات التي يتقرب بها الإنسان لربه، وأن آداب التفسير مجموعة من الملكات النفسية التي تعصم المفر من الوقوع في هوى النفس حين يفسر كتاب الله، علمنا بعد ذلك أهمية هذه الآداب وأولويتها ضمن منهج تفسير القرآن.

وقد أشار كتاب الله إلى أعظم هذه الآداب، وبين كيف أن مطاوعة هوى النفس والميل إلى المعصية يحجب عن الإنسان فهم القرآن حتى يستغرق عليه فقه معانيه وتدبر أحكامه وهديه، وفي ذلك قال سبحانه: (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يومنون بالآخرة حجابا مستورا، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا...).الإسراء٤٥.

فمن كان فاسد الاعتقاد أنى له أن يفسر القرآن ،والأكنة، في الآية جمع كنان وهو الغطاء الذي يكن فيه الشيء، فمن كان فاسد العقيدة قلبه في غطاء يحجب عنه فهم القرآن وفقيه.

هذا وأهم آداب التفسير التي ينبغي على المفسر أن يحرص على تحققها في نفسه.

أولاَ: صحة الإعتقاد:

فمن لم تكن عقيدته سليمة لوقوعه في أحد نواقضها لا يؤخذ تفسيره، وقد اشتهر في تاريخ علم التفسير أن الباطنية وغيرهم من فرق الضلال قديما كانوا يتجرؤون على التفسير بغية تضمينه معتقداتهم الباطلة حتى يلبسوا على الناس.

وفي عصرنا الراهن خاض في تفسير القرآن الكثير من الملاحدة الذين بلغ بهم العبث أن تطاولوا على كتاب الله يبحثون فيه عن ركائز لانحرافهم العقدي.

ومما تطلبه سلامة العقيدة أن يوقن المفسر بأن القرآن وحي من الله انزله على رسوله (صلى الله عليه وسلم)، وقد قام الرسول بالتبليغ والبيان كما أمر بذلك، وإيمان المفسر بهذه الأصول يستوجب إنكار كل ما يخالفها أو سمعها عن القرآن.

وقد نقل السيوطي (تـ: ٩١١ هـ) عن أبي طالب الطبري في أوائل تفسيره عن آداب المفسر: «اعلم أن من شرطه صحة الاعتقاد أولا... فإن من كان مغموما عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا فكيف على الدين، ثم لا يؤتمن في الدين على الإخبار عن عالم، فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى، ولأنه لا يؤمن إن كان متهما بالإلحاد أن يبغي الفتنة ويغر الناس بلينه وخداعه كدأب الباطنية ، وإن كان متهما

بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه كل ما يوافق بدعته كدأب القدرية، فإن أحدهم يصنف الكتاب في التفسير ومقصوده منه الإيضاح الساكن ليصدهم عن إتباع السلف ولزوم طريق الهدى.

ثانياَ: لزوم السنة:

وهذا الأدب من أعظم أسباب الاحتراز من الاختلاف والفرقة، ويعني لزوم الاقتداء بالهدي النبوي في الأقوال والأعمال؛ قال الإمام البيهقي: «وإذا لزم إتباع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما سن، وكان لزومه فرضا باقيا، ولا سبيل إلى إتباع سنته إلا بعد معرفتها. ولا سبيل لنا إلى معرفتها إلا بقبول خبر الصادق عنه، لزم قبوله ليمكننا متابعته، ولذلك أمر بتعليمها، والدعاء إليها، وبالله التوفيق».

هذا ولم يتفرق الناس وتظهر بينهم مختلف الانحرافات في فهم كتاب الله وتفسيره إلا بأحد سببين:

١- الإصرار على إتباع الهوى ومخالفة هدي النبوة، وقد يكون دافع ذلك التعصب.

٢- الجهل بالسنة الذي يؤدي إلى الزيغ.

ومما يتطلبه لزوم السنة أن يقف المفسر في مسائل الأصول عند دلالة النصوص، أما في الفروع فما لم يرد فيه نص عن المعصوم، ولم يجتمع فيه أصحابه على شيء فعند ذاك جاز إعمال النظر لمن كان مؤهلا لذلك.

قال الإمام البيهقي (تـ: ٤٥٨هـ): .وإنما اجتمع أصحابه على مسائل الأصول، فإنه لم يرو عن واحد منهم خلاف..، فأما مسائل الفروع فما ليس فيه نص كتاب ولا نص فقد أجمعوا على بعضه، واختلفوا في بعضه، فما اجتمعوا عليه ليس لأحد مخالفيهم فيه، وما اختلفوا فيه فصاحب الشرع هو الذي سوغ لهم هذا النوع من الاختلاف، حيث أمرهم بالاستنباط والاجتهاد مع علمه بأن ذلك يختلف.

وقال الإمام البيهقي أيضا: فهذا النوع من الاختلاف غير ذم الله تعالى وذمه رسوله (صلى الله عليه وسلم)...، فمن سلك من فقهاء الأمصار سبيل الصحابة والتابعين فيما أجمعوا عليه، واختلفوا فيه كانوا كالفرقة الواحدة، وهي الفرقة الناجية التي أشار إليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ثالثاَ: الإخلاص والتفويض:

ورد في مقدمة كتاب المباني إلى نظم المعاني» في الخصال التي يحتاج إليها المفسر: أن يكون مفوضا أمره إلى الله تعالى، متضرعا إليه أن يلهمه الرشد والتوفيق، وتحذير الإعجاب بنفسه، والاتكال على عقله، وجودة قريحته، فإن المعجب مخذول .

ويظهر التزام المفسر بأدب الإخلاص والتفويض من خلال ثلاثة أمور:

١- عدم قطعه بأن مراد الله هو ما توصل إليه في تفسيره من غير دليل.

٢-أن يظهر في تفسيره ما يدل على انه يفوض أمره لله تعالى متضرعا إليه سبحانه، وقد كان المفسرون من السلف الصالح ثم أئمة أهل السنة من بعدهم لا يغفلون عن قولهم (والله اعلم) مهما كان مبلغهم من العلم، وكانت خطبة الحاجة، أول ما يخطون و دعاء الاستغفار، آخر ما يكتبون.

٣-ومما يقتضي التفويض أن لا يعتد المفسر بمطلق عقله إلى درجة تحكيمه في الوحي، فضلا عن ذلك يجب عليه التمييز بين المشاهد القرآنية المتصلة بعالم الغيب الذي لا يدركه العقل، وبين مقاطع القرآن التي تعرضت لعالم الغيب الذي لا يدركه العقل، وبين مقاطع القرآن التي عرضت لعالم الشهادة الذي يقع ضمن المدارك الإنسانية.

هذا وقد أدى الإيمان. بقدرة العقل البشري المجرد عند بعض المتقدمين والمعاصرين ممن كتبوا في التفسير إلى مساواة هذا العقل مع الوحي، أو المبالغة في مرتبته.

حتى وصل بهم الحال إلى نوع أنواع منكرة من بدع التفسير.

رابعاَ: التدبر والتفكر:

ورد الأمر بتدبر القرآن في أكثر من آية، منها ما وجه الخطاب فيه لغير المسلمين، ومنها ما خاطب المسلمين كقوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب).ص٢٩. والتدبر في الآية يراد به القراءة الخاشعة المقرونة بالتفكر، لذلك قال الشوكاني في تفسيرها: «وفي البية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر.

قال الفيروز آبادي (تـ: ٨١٧ هـ) في لطائف الكتاب العزيز: والتدبر التفكر يقال: تدبرت الأمر إذا نظرت في أدباره، ومنه قوله تعالى (أفلا يتدبرون القـــرآن) محمد٢٤. أي أفلم يتفهموا ما خوطبوا به في القرآن.

وإذا كان القرآن قد ندب الناس عامة لهذا التدبر، فالمفسر من باب أولى، ويجب عليه إن أراد تحصيل حقائق كلام الله أن يحترز من كل شيء يحجب عنه فهم معاني القرآن بخاصة المعاصي والمبتدعات، وهذا مما يقتضي التدبر والتفكر...

قال الزركشي (تـ: ٧٩٤ هـ) في فصل عن «أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر: واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا تظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة، وفي قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كبر أو هوى أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان أو ضعيف التحقيق، أو معتمدا على قول مفسر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعا إلى معقوله؛ وهذه كلها حجب وموانع، بعضها آكد من بعض.